الظاهر بيبرس واستعادة إمارة أنطاكية

- **أصل المماليك وإنتقال الحكم من الأيوبين إلى المماليك.**
- **نبذة عن حياة الظاهر بيبرس.**
- **تولي بيبرس عرش البلاد وتوطيد دعائم حكمه.**
- **جهاد بيبرس ضد الصليبيين والمغول.**
- **استعادة إنطاكية.**
- **تحليل عام عن شخصية الظاهر بيبرس.**

Al Zaher Baibars

and Restoration of The Principality of Antioch

أ.ريهـــام المستـــــادي

ماجستير تاريخ إسلامي

صحفية بجريدة المدينة

عضو جمعية الآثار والتاريخ الخليجية

المملكه العربية السعودية

riham_almistadi@hotmail.com

من أين جاء التاريخ؟.. من الذي صنع الأحداث؟

لابد أن هناك أشخاصاً صنعوا التاريخ وسطروا أحداثه، لتسجل في ذاكرته وتكون سجلاً خالداً للأجيال القادمة. فمن هم أولئك الذين صنعوا التاريخ وأحداثه واثروا في مجريات الأمور ؟. شخصية عظيمة دارت حولها الحكايات والقصص الشعبية إنها شخصية الظاهر بيبرس، ذلك الشخص الذي استطاع على قدره فقد كان عبداً فأصبح سيداً؟ ثم انتقل ليكون أميراً لكنه لم يكتفي بذلك بل طمح ان يكون هو السلطان فأصبح ملكاً، فسبحان الله الذي جعل مملوك الأمس سلطان وملك اليوم، وسيداً على ملكه السابق.

كثيراً منا يجهل حقيقة هذه الشخصية وما تحمله من متناقضات الخير للمسلمين والشر للأعداء، فقد تناسينا دوره الجليل في حفظ الاسلام والبقاء على حضارته وذلك من خلال جهاده ضد المغول والصليبيين، لكننا دائماً نتذكر صلاح الدين البطل الذي انتصر على الصليبيين في معركة حطين، وكأنه المجاهد الأوحد الذي هزم الصليبيين في التاريخ.

فها هو بيبرس الذي انتصر في بادىء أمره على الصليبيين في معركة المنصورة فاظهر شجاعة كبيرة، ودوره البطولي في معركة عين جالوت ضد المغول، وجهاده المتواصل بعد توليه الحكم على الصليبيين في عدة مواقع، اذ استطاع استرجاع انطاكية الى حضيرة الاسلام، كم شل المغول في ابلستين.

ولهذا اخترت هذه الشخصية كي اكتب عنها بحثي هذا، فهي من الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الاسلامي، وهذا مما يعكس اهمية البحث لأهمية الشخصية، وأردت من خلال هذا البحث محاولة تذكير من أغفل أو تناسى أهمية هذة الشخصية التي أعجبت بها وأحببتها كثيراً وكم وددت أن أعيش في زمنها، فها هي تمضي مئات السنين ويظل اسم الظاهر بيبرس لامعاً مضيئاً كالشهب في سماء دنيا الفروسية.

أصل المماليك

كان الرق منتشراً في العصور الوسطى ،فكانت تجلب الغلمان من بلادهم الى أسواق الرقيق ، عن طريق النخاسون الذين يجلبونهم بالسرقة والخطف. وراجت تجارة الرقيق بسبب الغارات الحربية التي يشنها غاز أو فاتح فنتج عن ذلك سبي الجواري والغلمان.

والأرقاء هم: الترك والجركس والزنوج والفرس..... وغيرهم. ويعتبر الفاطميين أول من استعان بالمماليك الأتراك في مصر من أجل تثبيت السلطنة تشبهاً بالعباسيين في بغداد ، فاقتفى أثرهم بعد ذلك الأيوبيين[١]. فنجد مثلاً الملك الصالح نجم الدين يثبت ملكه بدماء جديدة ، حيث استكثر من شراء المماليك الأتراك فأنشأهم تنشئة عسكرية. وعندما زاد عددهم في البلاد رأى أن يبني لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة يقيموا بها. ومن هنا جاء تسميتهم بالمماليك البحرية ، والتي آل حكم البلاد فيما بعد الى أيديهم فقامت دولتهم[٢].

انتقال الحكم من الأيوبيين الى المماليك

في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وجه الصليبيين حملة كبيرة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الى مصر بهدف الاستيلاء عليها وفي اثناء الحملة توفي الصالح ايوب ، فاخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته خشية من أن يهتز وضع المسلمين في المعركة ، وأرسلت في الوقت نفسه تستدعي ابنه توران شاة من حصن كيفا ، ليأتي على عجل ويتولى مقاليد الحكم[٣]

وفي اثناء ذلك برز نجم المماليك البحرية الذين اخذوا على عاتقهم إنقاذ البلاد بقيادة فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري فكانوا سبباً في نصرة المسلمين[٤]. وفي هذه الأثناء وصل المعظم توران شاه الى مصر فأعلنت وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور ، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين ، مما اضطر الصليبيين الى التراجع فطاردهم المماليك ، وقع لويس التاسع في الأسر ، وانتهت الحملة الصليبية بانتصار المسلمين بفضل جهود المماليك[٥].

---

(١) محمود شلبي ، حياة الملك الظاهر بيبرس ، (بيروت ، دار الجبل ،ط١ ، ١٤١٢هـ) ، ص١١.

(٢) ابن واصل/جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم (ت٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج٦ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٣٢٥هـ)، ص٨٢.

(٣) ابن تغر بردي/ جمال الدين ابي المحاسن (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٦ ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٣هـ)، ص٣٢٢.

(٤) الدويداري/ أبي بكر بن عبد الله بن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، (الدر المطلوب في أخبار بني ايوب ج٧). تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور ، (القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ١٣٩١هـ)، ص٣٧٦.

(٥) ابن كثير/ الامام الحافظ ابي الفداء اسماعيل(٧٧٤هـ)، البداية والنهاية ج١٣ ، تحقيق: عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون ، (بيروت ، دار المعرفة ، ط٥ ، ١٤٢٠هـ)، ص٢١٠.

وسرعان ما ظهر للناس ان السلطان الجديد لم يكن الجل المناسب الذي سوف يتولى أمورهم ويصلح حالهم ، كما أنه ازداد غروراً بالنصر الذي حققه ، وتناسى ما أبلاه مماليك ابيه ، ولما احتج عليه هؤلاء رد عليهم بالتهديد وأبعدهم عن المناصب الكبرى.

كما تنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي حفظت ملكه وهو غائب ، فاتهمها بإخفاء ثروة أبيه فطالبها بالمال والجواهر وهددها حتى خشيت على نفسها منه ، مما حملها على بث شكواها الى المماليك الذين يخلصون لها[٦] فحقد عليه المماليك نتيجة للسياسته الحمقاء ، وتخوفوا من نواياه فاستقر لهم الرأي على قتله قبل ان يبطش بهم بمساندة شجرة الدر. وتزعم مؤامرة قتله مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين اقطاي وبيبرس البندقداري فتم لهما ذلك صباح يوم الاثنين (٢٨/محرم/٦٤٨هـ) [٧]

بعد مقتل توران شاه ، أصبح كرسي العرش شاغراً فاختيرت شجرة الدر كي تتولى السلطة[٨] فسعت جاهدة كي تتقرب من عامة الشعب ، الا ان المصريين لم يتقبلوا وجود امرأة في السلطة ، كما غضب الخليفة المستعصم من توليها الحكم ، فوجدت شجرة الدر نفسها في موضع حرج ، مما جعلها تستجيب للضغوط التي أحاطتها وتخلع نفسها من السلطة ، وتتزوج الأمير عز الدين أيبك لتتنازل له عن العرش.[٩] وكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر ، وبعد أن اعتلى عز الدين السلطة ، تلقب بالملك المعز. [١٠]

وبتنصيب الملك المعز حكم مصر تكون بذلك نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك.

نشأته

هو بيبرس بن عبد الله السلطان العظم الملك الظاهر ركن الدين ابو الفتح الصالحي ، ولد بارض الخبجاق (٦٢٥هـ) أغار التتار على بلاده فاسر وبيع ثم حمل الى سواث ، ومنها الى حلب وأخيراً استقر به الحال في القاهرة فشراه الأمير علاء الدين البندقداري وبقي عنده الى أن قبض عليه الملك الصالح نجم الدين واخذ بيبرس ليبقى في خدمته. [١١] كان أسمر بحمرة ، اشهل بزرقة ، تام القامة ، مليح الشكل ، جهير الصوت ، اصبح من أعيان الجامكية ، شهد وقعت المنصورة ، وله مواقف مشهودة وسيرة كبيرة وضعها محيي الدين بن عبد الظاهر ليصف شجاعته وفتوحاته ، وسيرة أخرى لأبن شداد. [١٢]

ولازالت الأقدار تساعده حتى وصل الى ما وصل اليه ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً يباشر الحروب بنفسه له مع التتار الوقائع الهائلة وكذلك مع الفرنج ، وبنى مدرسته بالقاهرة سنة (٦٦٢هـ)، وجعلها الفرنجة حين استولوا على مصر قلعة لهم لمتانتها وصلابتها. [١٣] ونجده في عام ٦٦٢هـ يسن نظام جديد وهو ولاية العهد لأول مرة في تاريخ دولة المماليك من أجل حصر وراثة العرش في ابنائة من بعده.

وفاته

بعد ان كسر الظاهر بيبرس التتار ، وصل الى الشام ونزل بالقصر الأبيض واختلف في سبب وفاته ، فقيل ان القمر كسف كله وشاع انه لموت جليل القدر ، فاراد الظاهر تأويله بغيره ، فاستدعى احد أولاد القاهر ابن المعظم عيسى ، وسقاه قمزاً مسموماً ، ثم شرب الظاهر ناسياً فتوفي عقب ذلك. كان ملازماً لصلواته الخمس في أوقاتها ، لم يشرب خمراً في حياته ، [١٤] وقد أقواله الماثورة "سماع التاريخ اعظم من التجارب" [١٥]

معركة عين جالوت ودور بيبرس بها

بعد أن أتم التتار الأستيلاء على البلاد الشامية ، أخذوا يستعدون للتقدم الى مصر ، فاستعد المظفر قطزبأن أعد الجيوش وتأهب للقاء العدو ، فخرج في شعبان سنة ٦٨٥ متوجهاً الى الشام لقتال التتار ويسبقه على مقدمة الجيش ركن الدين بيبرس ، فالتقوا عند عين جالوت ووقع القتال يوم الجمعة في الخامس عشر من رمضان[١٦] ، ورغب قطز في تحميس الجيش فالقى بخوذته فحمل الأمراء والعساكر حملة صادقة على العدو ، فقتل قائد الجيش المغولي كتبغا ، وقتل اكثر التتار وكسرت شوكتهم[١٧].

---

(٦) العيني/ بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ)، عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، ج١ ، تحقيق: محمد محمد أمين ، (القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، د.ط ، ١٤٠٧هـ)، ص٢٤.

(٧) المقريزي/ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت٨٤٥هـ)، السلوك في معرفة دول الملوك ج١ ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢٨هـ)، ص٢٠١

(٨) السيوطي/ جلال الدين عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج٢ ، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٤٢٥هـ)،ص٣١.

(٩) ابن تغر بردي ، مصدر سابق ، النجوم الزاهرة ج٦ ، ص٣٣٣.

(١٠) النويري/شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢٩ ، تحقيق: نجيب مصطفى فواز ، حكمت كشلي فواز ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢٤هـ)، ص٢٣٥.

(١١) الكتبي/ محمد بن شاكر بن احمد (ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات ج١ ، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ٢٠٠٠م) ص٢٥١.

(١٢) الذهبي/ شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: سيد حسين وخيري سعيد ، سير أعلام النبلاء ج١٧ ، (القاهرة ، المكتبة التوفيقية ، د.ط) ص٣٢١.

(١٣)عبد القادر بدران ، (ت ١٣٤٦هـ)، منادمة الأطلال ج١ ، تحقيق: زهير الشاويش ، (بيروت ، المكتب الاسلامي ط٢ ، ١٩٨٥هـ) ص١٢١.

(١٤) ابن الوردي/ زين الدين عمر (ت٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في اخبار البشر) ج٢ ، (النجف ، المطبعة الحيدرية ، د.ط ، د.ت) ص٣٢١.

(١٥) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٦٢.

(١٦) السيوطي ، مصدر سابق ، ص٣٣.

(١٧) الدويدار/ بيبرس ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق: زبيدة محمد عطا ، (د.م ، د.ط ، د.ت)، ص٦٩.

ويرجع الفضل في ذلك الى شجاعة بيبرس[١٨]، الذي كان في مقدمة الجيش لتقصي أخبار التتار، فكان أول اشتباك بين المسلمين والتتار وقع في مقدمة الجيش الذي يقوده، كما تتبع فلولهم الفارة بعد انهزامهم في المعركة في حمص وتتبعهم الى حلب الى ان كتب الله العزة والنصر للمسلمين والذل والانكسار للتتار[١٩].

ونأتي هنا كي نحلل دور بيبرس الرائع في المعركة، فقد لعب دوراً هاماً لأنه كلف من جانب قطز بمهمة صعبة، وهي قيادة مقدمة الجيش، فلم تكن قيادة المقدمة من الجيش بالشيء اليسير، ولولا ان قطز يعي جيداً قدرات بيبرس الحربية ما كان ليوليه القيادة. وكانت خطة قطز في حربه مع التتار هو البدء بتشتيت قوات المغول واستنزافها قبل الالتقاء مع بقية الجيش الاسلامي، حيث تظاهر بيبرس بالتراجع نحو التلال، فأسرع كتبغا لمطاردته، فلم تمض فترة قصيرة حتى طوق الجيش المغولي بكاملة، فكانت سيوف لهم بالمرصاد. وهكذا انتهت المعركة لصالح المسلمين، ومنعت فلول المغول والتتار من التقدم نحو بقية العالم الإسلامي.

اعتلاء عرش البلاد

بعد انتهاء معركة عين جالوت أراد بيبرس أن يأخذ حلب كما وعده قطز بذلك قبل المعركة، ولكن قطز رجع عن وعده له، ومن المحتمل أن يكون السبب في عدول قطز عن وعده أنه خشى من أن يقوى نفوذ بيبرس. وقد دفع ذلك بيبرس بأن يضمر الشر في نفسه، فأصبح كلاً منهما يضمر الشر للآخر، مما دفعه ان يتفق مع عدد من الأمراء الناقمين على قطز بالتخلص منه، فاتفقوا على قتله[٢٠]، فأخذوا يترقبون الفرصة الى أن خرج قطز طالباً الصيد، فظهر له أرنب فخرج ورائها، فتقدم أحدهم اليه ليشفع عنده فسارع بيبرس وهوى عليه بسيفه فأقبل الجميع على قتله، ورموه عن فرسه وقتلوه بالنشاب، وكان ذلك في سنه ٦٥٨هـ[٢١]. وفي رواية أخرى: (بعدما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطاني طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبي التتر، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها وكانت اشارة بينه وبين الأمراء)[٢٢].

كما وردت هذة الرواية عند ابن كثير في البداية والنهاية. لكن اختلفت في كلاً من زبدة الفكر وتاريخ ابن خلدون، فنصت على (بأن تقدم اليه أنز- وهو أحد الأمراء البحرية- شفيعاً في بعض أصحابه فشفعه له فأهوى يقبل يده فأمسكها وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعا لليدين).[٢٣]

وبغض النظر عن تفاصيل مقتل قطز ومن هو المنفذ، فنحن ندرك أن بيبرس قد تسبب في قتله. ولكن.. ما هو السبب الحقيقي وراء ذلك، هل كان عدم تولية قطز لبيبرس على حلب، أم أن هناك آثار عداوة باقية بينهما. أعتقد أن العداوة القديمة بين الطرفين هي السبب الحقيقي ويبدو أن الذي أشعل فتيلها من جديد هو عدم وفاء قطز لما وعد به بيبرس.

وبعد مقتل قطز، سار الأمراء الذين قتلوه الى الدهليز السلطاني بالصالحية، واتفقوا على سلطنة بيبرس، فقام الأمير أقطاي المستعرب وقال لهم: (من قتله منكم؟) فقال الأمير بيبرس: (أنا قتلته)، فقال أقطاي: (يا خوند اجلس في رتبة السلطنة مكانه) فجلس بيبرس، وبايعه اقطاي وحلف له، ثم تلاه سائر الأمراء والجند[٢٤]. وسار بعد ذلك في موكب السلطان طالباً مصر، فجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في يوم الخميس السابع عشر من محرم سنة ٦٧٦هـ[٢٥].

وبذلك يصبح السلطان بيبرس أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين جلسوا على عرش البلاد. وعندما بدأ مهام السلطة الجديدة اخذ يكتب ويراسل الأقطار ليعلم الأمراء بانه أصبح سلطان البلاد، واتخذ لنفسه لقب الملك القاهر[٢٦]، لكن أشار عليه الوزير زين الدين بتغيير هذا اللقب، وقال له: ما لقب به أحد فأفلح. قاصداً به القاهر بن المعتضد، الذي سملت عيناه، والقاهر عز الدين صاحب الموصل، الذي سم. فلما سمع ذلك بيبرس اتخذ لنفسه لقباً جديداً وهو الملك الظاهر[٢٧].

خريطة العالم الإسلامي عشية تسلطن الظاهر بيبرس

(١٨) وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١٤١٥،١هـ)، ص٤٤-٤٥.

(١٩) زاهية الديجاني، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٣هـ).

(٢٠) الذهبي/ الحافظ محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر ح٣، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ص٢٨٨.

(٢١) ابن سباط/ حمزه بن أحمد بن عمر، صدى الأخبار (تاريخ ابن سباط)ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس، جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ)، ص٣٩٧.

(٢٢) المقريزي/ تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت٨٤٥هـ) ص٥١٩.

(٢٣) ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، (د.م، بيت الأفكار الدولية، ط١، د.ت)، ص١٤٥٥. — ابن كثير، مصدر سابق ج١٣، ص٢٦١. - بيرس الدويدار، مصدر سابق، ص٧٣.

(٢٤) المقريزي، السلوك ج١، ص٥٢٠.

(٢٥) المقريزي، المواعظ والأخبار بذكر الخطط والآثار ج٣، اعتنى به خليل منصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ)، ص٤١٥.

(٢٦) ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة ج٧، ص٩٤.

(٢٧) ابن واصل، مفرج الكروب ج٦، ص٣٠١.

أعماله الداخلية

عمل بيبرس على استمالة العامة تجاهه ، وذلك كي ينسيهم مقتل سلطانهم ، ويزيح عن بالهم ما علق به في خاطرهم من اتصافه بالقوة والشدة. فقام بتخفيف الضرائب التي فرضها عليهم قطز قبل خروجه لملاقاة المغول[٢٨]. وأرى في ابطال الملك بيبرس للضرائب دليلاً قوياً على عبقريته وحنكته السياسية لانه يعلم مايرضي العامة ويقربهم منه ، وينتزع كرههم للماليك ليضع بدلاً عنه محبته وثقته في قلوبهم ، فأصبح محط اعجابهم وتقديرهم.

قضاءه على تمرد سنجر الحلبي

كان علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق من قبل قطز. وعندما ورد اليه خبر مقتل قطز وعلو بيبرس السلطة ، غضب لذلك ورفض الأمتثال لطاعة السلطان الجديد[٢٩] ، فدعا لنفسه وتلقب بالملك المجاهد ، وخطب له على المنابر يوم الجمعة ، وضرب السكه بأسمه ، كما كاتب صاحب حماه كي يخرج على السلطة الجديدة لكنه رفض وقال: (أنا مع من تملك مصر كائناً من كان)[٣٠].

حاول الظاهر بيبرس أن يسيطر على الأمر ، فاكتفى بالوعيد والتهديد كي ينصاع الحلبي له ، وعندما لم يذعن له رأى ذلك بيبرس اضطر الى استعمال القوة ، فجهز جيشاً بقيادة علاء الدين البندقداري[٣١] ، استاذ بيبرس الأول ، فوصل الجيش دمشق فخرج لهم الحلبي لقاتلهم حيث هزم الحلبي ، فهرب ليلاًالى دمشق متجهاً الى بعلبك ، لكنه أعتقل وحمل الى القاهرة لكن الملك الظاهر أعفى عنه بعد فترة[٣٢]

ثورة الكوراني

كانت ثورة شيعية قامت في القاهرة تستهدف أحياء الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على دكاكين السيوفيين من أسلحة ، فجابوا في طرقات القاهرة يصيحون "يا آل علي" ، ولكن الظاهر بيبرس استطاع أن يسيطر عليهم حيث أرسل جنده فأحاطوا بهم وشنقوهم على باب زويله. [٣٣]

كما قامت عدة ثورات أخرى ، تمكن بيبرس من القضاء عليها ومن أهم الثورات التي اقلقته وخشي على سلطانه منها ، ثورة المغيث عمر صاحب الكرك ، فتمكن من القضاء عليها باستخدام الحيلة فاستحضره الى بيسان كي يلقاه ، فقبض عليه رغم الأمان الذي أعطاه أياه بيبرس وبعث به الى القاهرة وضل بها الى ان قتل بعد ذلك.[٣٤]

ثم توجه بعد ذلك الى الاصلاحات الداخلية والعمل على التقرب من العامة ونجد أن أهم عمل قام به هو ارجاع الخلافة العباسية.

احياء الخلافة العباسية

أحياء بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٥٩هـ، بعدما تولى الحكم بعام ، ونصب المستنصر بالله أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله احمد. وكان محبوساً ببغداد ثم فر الى عرب العراق ، فعلم السلطان بيبرس بخبره ، فركب للقائه ومعه القضاة ، ثم بويع بالخلافة واول من بايعة السلطان ثم قاضي القضاة ، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتم ذلك في الثالث عشر من رجب ، ونقش اسمه على السكه ، وخطب له ثم سار وعليه السواد الى جامع القلعة.[٣٥]

النظام القضائي

كان الظاهر بيبرس أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك ، ومن شدة حرصه على قيام العدل بين الناس أنشأ داراً للعدل ، وخصص يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع للنظر في القضايا التي تعرض عليه ، وقد عين اربعة قضاة ، والسبب في ذلك يعود لتوقف قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز في تنفيذ الأحكام التي لا توافق مذهبه ،[٣٦] كما منع الملك الظاهر بيع الخمور والحشيش وأغلق الحانات ونفى المفسدين خارج البلاد.[٣٧]

البريد

لقد أولى البريد اهتماماً خاصاً ، فقد زاد في عدد محطاته على الطريق ، وجهزها بخيل سريعة. كما قام بصرف المرتبات والمكافات للقائمين عليه ، وحرص على قراءة ما يرد اليه من البريد كما أنه لم يؤخر رداً وجواباً للبريد ، ومن خلاله استطاع أن يدير أمور الشام ومصر.[٣٨]

الدينار الجديد الذي ضربه بيبرس في الإسكندرية عام ٦٥٩هـ

(٢٨) وليم موير ، تاريخ دولة المماليك ، ص٤٨.
(٢٩) المقريزي ، السلوك ج١ ، ص٢٢١.
(٣٠) ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ص٣٩٩.
(٣١) علاء الدين ايدكين البندقداري ، استاذ الملك الظاهر بيبرس ، وقد أنابه على حلب ، فسبحان من يعز ويذل. النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٠٣.
(٣٢) ابن سباط ،المصدر نفسه ، ص٤٠١.
(٣٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ص٥٢٢.
(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص١٤٥٧.
(٣٥) السيوطي/ جلال الدين ، تاريخ الخلفاء ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ط ، د.ت)، ص٣٨١.
(٣٦) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ج٧، ص١٠٩. — السيوطي ، حسن المحاضرة ج٢ ، ص١٢٨.
(٣٧) عبد الحميد عبد المقصود باشا ، موسوعة سفير للتاريخ الاسلامي (مصر والشام والجزيرة العربية)، (القاهرة ، شركة سفير للنشر)، ص٨٨-٩٠.
(٣٨) عبد العزيز عبد الله الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، (د.م ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ)، ص٤٤-٤٥.

الأسطول والجيش

عمل على تكوين قوة بحرية لتصبح سنداً له ضد أعدائه في الخارج ، ويعتبر بحق المؤسس الأول للأسطول البحري المملوكي ، فأنشأ دار لصناعة السفن في الفسطاط والأسكندرية ودمياط وكان يشرف بنفسه على الشواني.[٣٩] ومن شدة حرصه على صناعة السفن أنه منع الناس من التصرف في الأخشاب ببيعها ، واستطاعت الشواني أن تغلب شواني قبرص وتكسرها.[٤٠]

هذا بالإضافة الى أنه أعد جيش جيد التنظيم ، فأولاه عنايته واهتمامه منذ أن تولى حكم مصر ، فقد استكثر من شراء المماليك ، وعني بتربيتهم دينياً وعسكرياً.[٤١]

الجانب الحضاري في دولة الظاهر بيبرس

تميز عهد الظاهر بيبرس بمباني وعمائر لم تكن معروفة زمن من سبقوه ، وان دل ذلك على شي فإنما يدل على وفرة المال وحياة الرخاء في عهدة ، فبنى ألابنيه والرباع والخانات والمساجد والحمامات.[٤٢]

وبصفة عامة نجد أن العصر المملوكي كان عصر ازدهار للفن الإسلامي في بلاد مصر والشام ، فأصبحت مصر عامة والقاهرة خاصة مركزاً هاماً وحيوياً للفن الإسلامي والمنشآت المعمارية ، ومن أهم تلك المنشآت التي تميز بها ذلك العصر وخاصة في عصر الظاهر بيبرس هو مسجده الذي أنشأه عام ٦٦٥هـ ، وتميز بالزخارف الحجرية والجصية من الداخل.[٤٣] كما انشأ مدرسة عرفت بالمدرسة الظاهرية ، وجعل فيها أربعة مدرسين لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة ، ووضع فيها خزانة للكتب تشمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله[٤٤].

جهاد بيبرس ضد المغول

إن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ وقعة عين جالوت ، اذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر ، وخاصة ابغا ابن هولاكو ، الذي واصل سياسة ابيه العدائية تجاه المسلمين ، فيما اتسمت سياسته مع الصليبيين بالود. لكن الظاهر بيبرس وقف لهم دائماً بالمرصاد واستطاع أن يكسر شوكتهم ، مما دعا ابغا الى طلب الصلح ، ولجأ في طلبه الى الترغيب والتهديد ، لكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول امر لايرضي المسلمين ، وذلك بسبب ما فعلوه في بغداد.[٤٥]

ورغم ذلك واصل المغول هجماتهم على الساجور ،[٤٦] لكن بيبرس ردهم خائبين ، ثم ما لبثوا أن هاجموا عين تاب ، لكن بيبرس دحرهم ، وهكذا قام بكسر التتار في أخرها عندما تحالف المغول مع سلاجقة الروم في اسيا الصغرى ، فأعد حملة كبيرة سنة ٦٧٥هـ ،[٤٧] لغزو سلاجقة الروم. وفي موقعة أبلستين حلت الهزيمة الساحقة بالمغول وحلفائهم من السلاجقة ، وقد فر زعيم السلاجقة بعد ان قتل عدد كبير من رجالة ورجال المغول ، ثم دخل بيبرس قيسارية ، ودعي له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة.[٤٨] وقيل ان أبغا لما سمع بما فعله بيبرس برجاله في موقعة ابلستين أسرع الى هناك ليشتد غضباً بما وجده من الآف القتلى من المغول في حين لم يرى أحدا من السلاجقة ، مما جعلة يأمر بقتل ما يزيد على مائتي ألف من المسلمين السلاجقة.[٤٩]

وهكذا نرى أن حروب بيبرس ضد المغول والصليبيين قد أوقفت خطراً كان يهدد الدولة الإسلامية ، إذ استطاع بقوته وحنكته أن يصبح المسيطر في المنطقة ، مما حفظ الحضارة الإسلامية من الضياع.

جهاد بيبرس ضد الصليبيين

خرج الملك الظاهر بيبرس من مصر عام ٦٦٤هـ ، بعساكره الى البلاد الساحلية الواقعة تحت سيطرة الفرنج ، فنزل قيسارية وتمكن من فتحها بعد ستة أيام فهدمها ، ثم سار الى أرسوف وفتحها في جمادي الآخرة من هذة السنة. وفي هذة السنة خرج الملك الظاهر من مصر متوجهاً الى طرابلس ، ومنها الى صفد حيث قتل وجرح العديد من المسلمين ، وتمكن من فتحها في التاسع عشر من شعبان ، حيث أعطى أهلها الأمان ثم قتلهم جميعاً.[٥٠]

وفي سنة ٦٦٥هـ ، توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق الى الديار المصرية بعد أن تم له الاستيلاء على بلاد سيس بكاملها ، وعلى الكثير من معاقل الفرنج ، وذهب بعد ذلك الى الكرك ليطلع على

---

(٣٩) الشواني: جمع شينة أو شونه وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول ، وهي عبارة عن مراكب حربية كبيرة كان يقام فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم ، كما احتوت على مخازن لخزن الطعام والمياة.

(٤٠) أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، (القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة للنشر) ص٤١٣.

(٤١) عبد الحميد باشا ، موسوعة سفير ، ص٨٢.

(٤٢) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٧٢.

(٤٣) م.س.ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد فكري ، (القاهرة ، دار المعارف) ص١٠٩.

(٤٤) المقريزي ، الخطط المقريزية ، ص٢٢٤.

(٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبين والمماليك ، (بيروت ، دار النهضة العربية ، د.ط ، د.ت) ص٢٠١.

(٤٦) الساجور: اسم نهر بمنبج ، الحموي/ شهاب الدين ياقوت ، (ت٦٢٦هـ) ، معجم البلدان ج٥ ، (بيروت ، دار احياء التراث العربي ، د.ط ، د.ت) ص٧.

(٤٧) ابن خليكان/ ابي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان ج٤ ، تحقيق: احسان عباس (بيروت ، دار الفكر ، د.ط ، د.ت) ص١٥٥.

(٤٨) أبي الفداء/ الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت٧٣٢هت) ، المختصر في أخبار البشر ج٤ ، تحقيق: محمد زينهم (القاهرة ، دار المعارف ، ط١ ، د.ت) ص١٧.

(٤٩) اليافعي/ ابو محمد بن عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ) ، مرآة الجنان ج٤ ، (القاهرة ، دار الكتاب الاسلامي ، ١٤١٣هـ) ص١٧٤.

(٥٠) ابي الفداء ، المختصر في اخبار البشر ج٤ ، ص٧-٨.

أحوالها ، لكنه سقط من على فرسه عندما كان يصطاد فانكسرت فخذه.[٥١] وفي سنة ٦٦٦هـ، توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره الى بلاد الشام وفتح يافا في شهر رجب ، وأخذها من الفرنجة ،كما تمكن من فتح انطاكية بالسيف.[٥٢]

وبعدما فرغ السلطان بيبرس من فتح يافا توجه الى الشقيف وفي أثناء سيره اليها وقع في يده خطاباً من الفرنج بعكا الى النواب بالشقيف يحذرهم من سير المسلمين إليهم ، ولما قرأه بيبرس خطر في ذهنه خطة فاستدعى من يكتب بالإفرنجي ، وأمره أن يكتب كتاباً يتضمن فيه أن يحذر الكمندور من الوزير وكتاباً أخر يتضمن العكس ، مما جعل الوقيعة والفرقة تقع بين الاثنين ، وهذا ما ساعد بيبرس في الاستيلاء على الشقيف بعد أن شدد الحصار عليها.[٥٣]

فتح انطاكية

لم أجد في المصادر ما يذكر بالتفصيل فتح انطاكية ، كما ذكرها بسام العسلي في كيفية استيلاء الملك الظاهر عليها وتقسيمه للجيش الاسلامي. اجتمعت معظم المصادر بذكر أن السلطان نزل عليها مستهل شهر رمضان المعظم سنة ٦٦٦هـ، فخرج أهلها يطلبون الأمان ، وشرطوا شروطاً ما ، قبلها السلطان ، فردهم خائبين.[٥٤]

بعض ما جاء من أخبار أنطاكية

بعد أن تمكن السلطان من السيطرة على انطاكية ، خرج حوالي ثمانية الاف نفر من الجال عدا الحريم والأولاد ، فتزاحموا مما أدى الى موت الكثير منهم ، ونفاذ طعامهم مما استدعاهم ذلك الى طلب الأمان ، فخرجوا سجداً وقالوا: (ارحمنا يرحمك الله) فرق الملك الظاهر لهم ، فعفا عنهم من القتل.[٥٥]

وما قيل في أمر بناء أنطاكية ان الملك أنتميوخس أراد بناء مدينة يعمرها وتنسب اليه ، فطلب من حكمائه ووزراءه اختيار مكان يكون طيب الهواء والماء قريباً من البحر والجبل ، فوجدوا أنطاكية بهذة الصفات ، فأمر باخراج الأموال وجمع الرجال للبدء في بناءها.فأتم بناءها في ثلاث سنوات ونصف ، وبنيت أسوارها وابراجها ، ولها من الأبواب تسعة ، وجعل باب من الجبل ينزل الى المدينة ولم تزل هكذا الى ان ظهر المسيح عليه السلام ، وظلت في أيدي النصارى ثم انتقلت الى ايدي المسلمين عندما صاع أبا عبيدة الجراح أهلها على الجزية ، واستقرت بعد ذلك في ايدي بني حمدان ، الى ان ملكها الروك وظلت تنتقل امارة انطاكية من ايدي المسلمين الى النصارى الى ان اتم الله فتحها على يدي الظاهر بيبرس.[٥٦] وهذة أنطاكية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى:

{ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ}.[٥٧]

فتح بغراس[٥٨]

بعد ان فتح الملك الظاهر بيبرس المناطق السابق ذكرها ، اراد فتح بغراس ، فأرسل جيشاً بقيادة الأمير شمس الدين أقنقر في الثالث عشر من رمضان ، ولم يكن بها سوى امرأة عجوز ، فكانت ما تركوا أهلها ، وقد حاول قبل بيبرس الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين ان يفتحها حيث حاصرها بالجيش الحلبي سبعة اشهر فلم يستطع ، ولكن السلطان بيبرس تمكن من غير تعب أن يستولي عليها ،[٥٩] وكانت المدينة خالية للخوف منه ، وأصبحت بعد ذلك من الحصون الاسلامية.[٦٠]

وفي هذة السنة من شوال صالح الظاهر بيبرس هيثوم صاحب سيس على أن يحضر سنقر الأشقر الذي أسره التتار في قلعة حلب ، كما يطلق له الظاهر ابنه ليفون.[٦١]

المدرسة الظاهرية

توجد المدرسة الظاهرية (نهاية القرن الثالث عشر) في مدينة دمشق أمام المدرسة العادلية حيث يستقر جثمان السلطان الأيوبي الملك العادل الكبير ، شقيق صلاح الدين الأيوبي. وتعد المدرسة الظاهرية اليوم مكتبة قومية للمخطوطات وتحتوي على مقبرة السلطان المملوكي بيبرس قاهر كلّ من المغول والصليبيين. وهي تتميز بالزخارف الفخمة والموزاييك الذهبي التي تماثل الأشكال الفنية للمسجد الكبير إلا أنها لا تعادلها في البراعة. وتحتوي على غرفة الدفن والتي تستقر فوقها قبة عالية على المحراب العظيم.

(٥١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ ، ص٢٨٩.
(٥٢) العلمي/ مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٧هـ)، الأنس الجليل ، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد ، (عمان ، مكتبة دنيدس ، ١٤٢٠هـ) ص٨٦.
(٥٣) الدويدار ، مصدر سابق ، ص١٢٥-١٢٦.
(٥٤) أبي الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، ص١٠. — ابن الوردي/ زين الدين بن عمر ، تتمة المختصر في تاريخ البشر ج٢ ، ص٣١٢.- الذهبي ، العبر في خبر من غبر ج٣ ، ص٣١٤.- ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ج٥ ، ص٣٢٢.
(٥٥) الدويداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ص١٢٧.
(٥٦) الدويداري ،كنز الدرر ، ص١٣١-١٣٢-١٣٣
(٥٧) سورة يس ، أية ١٣.
(٥٨) بغراس أو بغراص ، مدينة في لحق جبل الكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ ، معجم البلدان ج١ ، ص٣٦٨.
(٥٩) العيني/ بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج٢ ، تحقيق: محمد محمد امين ، (القاهرة ، النهضة المصرية للكتاب ، د.ط ، ١٤٠٨هـ)، ص٢٩.
(٦٠) ابن الوردي/ زين الدين عمر ، تاريخ ابن الوردي ، ص٣١٢.
(٦١) ابن الوردي ، مصدر سابق ، ص٣١٣.

تحليل عام عن شخصية الظاهر بيبرس

كان السلطان ركن الدين بيبرس رحمه الله سلطاناً عادلاً ، لكنه كان عجولاً متسرعاً وهذا ما عابه عليه بعض المؤرخين ، لكن ذلك لا ينقص من شأنه ومن عظمته وقيمة ما قام به من أعمال جليلة من تعمير البلاد واستقرارها وحفظ أمنها فقد كان سيفه قاطع بتار لكل مغير على الديار.

واذا نظرنا الى شخصيته عن كثب ، وجدنا فيها العديد من المتناقضات ، حيث جمع بين الخير والشر وبين الشدة واللين ، وبين العطف والقسوة ، فمثلاً نراه عندما أحيا الخلافة العباسية عمل على تقليص وتقويض نفوذ الخليفة ، فأصبح هو المهيمن والمسيطر الآمر الناهي في البلاد ، كذلك نراه متمسكاً بالشريعة ناصراً للسنة محارباً للشيعة لكن رغم ذلك تراه ايضاً مخالفاً للشيخ ابن عبد السلام في كثير من آراءه وفتواه ، والى جانب ذلك كان يتصف بالمكر والخديعة والوقيعة بأعدائة وافتقادة للثقة فيمن حوله فلا يرحم من عاداه ، فكان هذا جانب من حياته ، أما على الجانب الآخر عدله في رعيته وسنه للقوانين العادلة.

ولقد صور المستشرقين الفرنسيين بيبرس في كتاباتهم لن نتمكن من استعراض كل ما نشر من الكتب الفرنسية التي تناولت السلطان بيبرس ، ومنهم غوريسيه في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية" الذي ظهر في ثلاثة مجلدات ، فافرد مساحة وافرة في المجلد الثالث لتاريخ الظاهر بيبرس متخذاً منه موقفاً عدائياً ، يظهر في وصفه أياه بالحيوان المفترس والفض ، السلطان العبد ، ويصور مقتل قطز بمشهد وحشي ، ووصف حكم المماليك بالنظام الدموي البربري ، في مقابل الحكم الأيوبي الانساني والليبرالي.

وفي ذلك تشوية لصورة بيبرس وحكم المماليك ، ومن وجهة نظر مستشرق آخر يدعى كلود كاهين في كتابه "سوريا الشمالية في عصر الصليبيين وامارة انطاكية" فقد حضت صورة السلطان بالمزيج من الإنصاف والاعتدال ، وأثنى على شجاعته وبطولته في عين جالوت وانجازته العسكرية في الاستيلاء على أنطاكية لكنه أوضح الجوانب السلبية في شخصيته من افتقارة الى الذمة ووقاحته الفظة وعجرفته التي لا تعرف الرحمة.[٦٢] وأرى أن آراء هؤلاء المستشرقين هو أمر طبيعي ، ضد الشخص الذي استطاع أن يقضي على نفوذ الصليبيين الذين ينتمي اليهم هؤلاء المستشرقين.

الخاتمة

صدق من قال" دوام الحال من المحال" هاهي دولة صلاح الدين تنهار لتقوم على أنقاضها دولة جديدة وعلى يد مملوك الأمس الذي أصبح سلطاناً يخشاه الملوك ، فقد استطاع الظاهر بيبرس الذي تولى عرش البلاد أن يصد هجمات التتار ويقف بالمرصاد ضد أطماع الصليبيين.

لم يكتفي هذا الملك الشجاع بتأمين حدود البلاد ضد الأعداء بل قام بتوطيد دعائم الملك والقضاء على الثورات التي قامت بالداخل واكتسب المحبه بأعماله الجليلة واصلاحاته العظيمة فأقام العدل واهتم بتعليم الشريعة ، وأسس حضارة اصبحت مثلاً ونبراساً يقتدى به على مر العصور ، ولا زالت آثارها ماثلة الى يومنا الحاضر.

(٦٢) أحمد حطيط ، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري ، (دار الفرات ، ط١ ، ٢٠٠٣م) ، ص٢٥١-٢٥٧.

جامع السلطان الظاهر بيبرس (المدخل العمومي)

جسر جنداس: ويقع شمال مدينة اللد وبني في عهد المملوك الظاهر بيبرس يبلغ طوله ٣٠ متر وعرضه ١٣ متراً وارتفاعه ٦.٥ متر.

من مقالات الأستاذة/ ريهام المسناوي

- السيف
- هل للتاريخ فائدة أم أنه مجرد تنشيط للذاكرة ؟
- مدفع رمضان:
  اكتشف بالصدفة وتقاعد بجدة وصمد بمكة
- الظاهر بيبرس: لم يعرف جيشه الهزيمة في حرب